محمد سعيد العتيق

قراءة في «مجموعته بين نطفتين»

محمد سعيد العتيق شاعر يمتهن الطب من بلاد المقاومة سوريا العربية كان له حضورا في مهرجان الإسكندرية وهو يمثل شعر بلاد القباني الممتزج بهموم الناس وإن كان ذاتيا فقد جاء معبرا اصدق تعبير عن مرتبة ومقام الشعر في هذا الجزء النابض من جسد امتنا نتصفح معا مجموعته الشعرية الموسومة (بين نطفتين)

أقول: أن جمال الشعر في بلاغته وبلاغة الشعر في تداول الأساليب البلاغية وفقا لمقتضيات الحال ((كناية، واستعارة، تشبيه، مجاز مرسل)) وما إلى ذلك من الفنون اللغوية التي تفضي في نهاية الأمر إلى تعاقب الصور الشعرية العابرة للواقع المسافرة بعيدا في عالم المخيلة، فلا جمال للصورة المعبرة عن الواقع في ذاته بل الجمال كله في ما وراء ذلك الواقع ولا يحقق الشاعر هذا الهدف مالم يتمكن من توظيف دقيق لتلك الأساليب .

والشاعر العتيق نجح تماما في استدعاء اللغة وفنونها والمفردة وانسجامها والجملة وحسن سبكها وهو لاشك شاهد على سعة معجم عربية الشاعر وسعة المخيلة . وما لا شك فيه أن القصيدة عند العتيق سلسلة من الصور الجزئية المتعاقبة أو المتداخلة، خصوصا انه يجيد الانتقال الذكي من لوحة لأخرى دون إشعار المتلقي بحركة الانتقال فمثلا نقرأ له في مجموعته (بين نطفتين)

الصورة الأولى:

لو كُنْتُ

أَمْلكُ نُطفَتينِ

منَ المَدَى

لملأتُ

أفْلاكَ الزَّمانِ

جَمَالا...ص7

الصورة الثانية:

منْ نقطَتينِ

تَلاقَتَا

نَهجٌ بَدَا

عَشِقَ المَكانُ

زَمانَهُ فَتَعَالَى...ص8 .

الإطار العام للصورة هو(النطفة) باعتبارها أصل الخلق واللفظة أصلا قرآنية وهنا الصورة واضحة نقية ملونة بالجمال، بيد إن الشاعر استعملها ليس للمعنى القريب (النطفة) بل بمعناها الأبعد وهنا اشتغلت (الكناية) كأحد الأساليب البلاغية التي يتطلبها الشعر بوصفه كلاما غير مباشر ينفتح على تأويلات مختلفة وبؤرة التأويل مفردة(نطفة)

من نوع الإنشاء ألطلبي من باب (مستحيل الحصول) الذي لا تصلح له في العربية إلا (ليت، لو، لعل) والقصد من وراء استعمال لفظ (النطفة) وبأسلوب التمني هو عزة الشيء وعدم إمكانية بلوغه، وعلى هذا سجلت الصورة عامة صورة متخيلة خرجت تماما عن الواقع وأكسبته جمالية وجلال الشعر .

ولنتحرى الصورة الثانية التي شكلت في مضمونها خطوطا مشتركة مع الصورة الأولى ذلك أن الشاعر حرص على وحدة التشكيل العام للموضوع أو ما يسمى (وحدة الموضوع) ولكن بقراءات متعددة:

ثمة تلاعب لفظي أضفى على الصورة الثانية تصاعدا جماليا من حيث التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر وهذا أيضا أسلوب بلاغي وهو من ضرورات الشعر (عشق المكان زمانه ... فتعالى)

بهذه الصور المتجانسة تجاوز الشاعر محاولات شرحه وتحليله، فضلاً عن إعادة تركيبه بالفاظ منسجمة فتمكن من الحفاظ على المعنى» ويتوالى القبض على الاسئلة الكبيرة مستغلا المساحات التي لا حدَّ لاتساعها في مخيلته ووجدان المتلقي الحاذق، ثم يحشدها في بضعة أسطر، وهذا من سمات الشعر الحديث على أي صورة جاء، فالشعر الحديث يستدعي تتابع وتلاحق أسراب من الصور المتراكبة التي يصعب علينا أن نحكم بنهاية إحداها وبداية الأخرى؛ ويبرر كولردج ذلك بقوله: (إن الشاعر يرى أن هدفه الرئيس وأعظم خاصية لفنه هو الصورة الجديدة المؤثرة والمكثفة والموجزة).

وفي نص (نزعُ الأصيلْ) يقول الشاعر:

حَمَلَ النَّدى

منْ جَوفِ فجرٍ

ثمَّ غابَ

معَ الرِّياحْ

أيمُرُّ

منْ ثقبِ الضَّجرْ؟

لا يَرتَمِيْ

فـي حُضنِ أغنيةٍ

وَ لا ينسَى البكاءْ

منْ كانَ يبحثُ ...عنْ سماءْ

الشعر مفردات وليس لشاعر ان ينتج حتى يأخذ بتلابيب تلك الألفاظ ويتلاعب بها ويحاكيها وكأنه كائن حي، لابد إن يكون مفتونا بهديرها واندفاعاتها، منشدا الى الأشياء، منذهلا تماما أمام فوضى الحياة وزخم الألم العارم الذي يغلف حياته خصوصا في عالمنا العربي، وازعم أن أجمل الشعر ما جاء وليدا للألم ونتج عن المعاناة التي تدفع الشاعر الى البحث والتقصي عن تجسيد لشكل عالمه الذي يعيشه من وسط هذا الارتباك والارتياب تلد الأسئلة الكبيرة والتي قد لا تحتم على الشاعر الإجابة عنها لتشكل الحبل المتين بينه وبين المتلقي .

وهنا يحضرني قول لدرويش مفاده أن «الكتابة واللعب صنوان» بل اللعب هو قانون عليه جريان الشعر وهذا ما يدفع الشاعر للتساؤل الدائم ووضع الابهامات المستمرة في نصه ليصل بالمتلقي الى قمة المشاركة .

(أيمر من ثقب الضجر؟) وإذا كان القصد مرور الأصيل فلا إجابة من الواقع ولا إجابة من المخيلة فالأمر كله لعبة شعرية لفظية حلقت

بمخيلة متلقيها إلى العالم الافتراضي الذي لاوجود له أصلا إلا في مخيلة الشاعر.

وعليه هل هو عبث لفظي لا هدف للشاعر من وراءه؟ والجواب مطلقا فالشاعر على وعي تام بما يريد الوصول إليه وهو بالتأكيد قد بلغ أربه من خلال ذلك ألا ان المشكل يكمن في التأويل والمقاربة لذلك الهدف .

ومن الناحية البلاغية تتوالى الكنايات التي تزيد النص عذوبة وتحث القارئ على التقصي واستكناه ما وراء المعنى الظاهر .

والملاحظ في النص أعلاه استخدام صيغ النفي والنفي أسلوب لغوي، لنقض ما يتردد في ذهن المخاطب وإنكار ونفي جملة ما يعني نفي الإسناد الحاصل فيها، وإبطاله فإن النفي في الجملة الفعلية يعني نفي إسناد الفعل إلى فاعله وتلك من الصور البلاغية أيضا (لا يرتمي، لا ينسى).

وفي نص ينتمي للقص الشعري تمكن حقيقة الشاعر في الذوبان مع حالة اجتماعية قد تكون من مشاهداته وهي من نصوص الوجع العربي الملتهب حروبا وحرمانا ولقيمة هذا النص الانسانية وتعبيرها الحقيقي والفاعل من أن الشاعر ناطق عن كل المحرومين والجياع فهو النبي بلا وحي والعين التي حباها الله بالدمع الوفير تبكيه المواقف المذلة

للانسان وتسعده سعادته لاجل هذا سنركز على مضامينه بعد عرضه دون أي اجتزاء:

خوفُ الكستناءْ

يَا خالتي.. وَ أنَا أبيعُ الكستنَاءْ / فوقَ الرّصيفِ على مشَارفِ دمعةٍ خلفَ الدّماءْ/ ما بينَ شرْيَانِيَ شريانِ الحقيقةِ وَ الفَناءْ/ سقطَتْ عليَّ قذيفَةٌ وَ أنَا أُحملقُ فِي السَّماءْ / وَقعتْ بقربِي فاستدرتُ بسرعةٍ هبطَ البناءْ / كانَ الطَّريقُ بجَانبي متبعثرًا تتدَحرجُ الأشلاءُ/ كانتْ قبلَ ثانيتينِ أطفَالًا تسيرُ معَ النّساءْ/ وَ أنا أراقبُ بينَ خوفِي كيفَ جُنَّ الكستناءْ/ وَ أرى لأوَّلِ مرّةٍ كيفَ/ السَّماءُ بكتْ وَ كيفَ الصّيفُ حلَّ معَ الشِّتاءْ/ كيفَ الدُّنَا شيءٌ منَ الأشياءْ/ ماذَا أقولُ لخالتِي؟! أينَ النُّقودُ؟!

وَأينَ كِيْسُ الكستنَاءْ/ ماذَا أقولُ لخالتِي؟! وَ الكونُ منْ حوليْ هبَاءْ.

ص77 – 78

الخطاب السردي الشعري المباشر بين قطبين أساسيين: الذات الفاعلة والذات المخاطبة، وكلاهما يمثل وجه السياق الخارجي للنص، إن الشاعر المعاصر يعمد إلى توظيف الأحداث المعاشة وهو يدون للتاريخ ؛ وتشكل بالتالي مواقفا للشاعر من الحدث، أو هي محاكمة للعصر ونقائصه من وجهة نظر الشاعر، وهو في ذلك يختار الأحداث والشخصيات التي تتلاءم ومضمون تجربته، فيتصل

بها اتصالا يعمقها (وتكون استلهاماته الشعرية صورة رامزة للواقع المستفز بهموم القضايا السياسية حيث يخبئ الشاعر فيها لون فكره وخطوط رأيه).

والكستناء موضوعة في غاية الألم تستعطف القارئ وتبكيه بمرارة مزج الشاعر فيها بين الواقع والمخيلة الشعرية بانسجام حافظ على بنية الموضوع ولم يسبب حالة قطع بين ذات الشاعر وذات المخاطب .

وعندما يتلمس الشعر هموم الناس وقضاياهم ويكون صادقاً أعتقد أن أهميته تزداد، وبالتالي يعود ينعكس على الشاعر إيجابا فسيحبه الناس يقينا، وبعد محبة الناس سيتألق ويحلق بشعره في فضاء الهم الجمعي . وإذا كان الشاعر بعيداً عن قضايا الناس وهمومهم، ويعيش في برجه العاجي، يخاطبهم من هناك، فهذا سيؤدي إلى ابتعاد الناس عنه، وبالتالي عن الشعر، وسوف يخلق غربة رهيبة ومخيفة تشكل خطراً على التجربة الشعرية عموما.

وفي رأيي الشخصي كل شاعر يطمح لأن يكتب للناس، ولكن قدر الشعر أن لا يكون للجماهير عند بعض الشعراء وهذا رأي فيه نظر.. فالمتنبي لم يكن مقروءاً في عصره، فقيمة المتنبي جاءت بعد موته، عبر الاهتمام النقدي الذي تابعه، وهو لم يكن مقروءاً في عصره كما يُقرأ الآن محمود درويش وأدونيس، لكن الناس دائماً يجب أن يكون

لديهم همّ ثقافي، والحقيقة أن درويش واد ونيس القباني وقائمة طويلة امتزجوا تماما مع الهم الإنساني فكانوا أكثر شهرة في عصرهم من شهرة عمالقة الشعر ضمن اطار عصورهم وأن الصنف الثاني نال الشهرة بعد موته من خلال التنقيب في قصائده .

وعلى هذا فإن العتيق ابن الشام هذا الجزء من العالم الذي يحترق كل يوم بنار الحرب فتتلاحق المشاهد المأساوية وتشكل في مخيلة الشاعر مادة أولية خصبة للكتابة بهذا الاتجاه، وهذا ما التفت اليه شاعرنا في هذا النص ونصوص أخرى تضمنتها المجموعة، لكن هذا النص يقطر وجعا .

وليس لقارئ أن يحيط بكل نصوص هذه المجموعة المميزة حقا والتي تبشر بأن الشعر العربي بألف خير ويتجدد مع كل جيل شعري .